الفصل الرابع

ازدحام الشرق الأوسط بالهجرات والأنبياء واختلاط السلالات والثقافات

الفصل الرابع

ازدحام الشرق الأوسط بالهجرات والأنبياء واختلاط السلالات والثقافات

(أ)

عَرَف المصريون القدماء الهكسوس Hyksos و العَمُو Ammou والميتانى Mitanni والحيثيين Hatti، وعرفوا بنى إسرائيل أيام مرنبتاح Merenptah (١٢٣٢ ق.م – ١٢٢٤ ق.م تقريبا). وفى الألف الأولى قبل الميلاد عرفوا الأشوريين والفرس والبطالمة، ولم يرد للعرب ذكر فى التاريخ المصرى القديم. كذلك لم يرد لهم ذكر فى أى نَصّ من نصوص حضارات الشرق القديم قبل القرن التاسع قبل الميلاد.. والوثائق الأشورية التى ترجع إلى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد، تشير إلى ملكات العرب.

والمعلومات عن شمال شبه الجزيرة ووسطها نادرة قبل القرن الثانى قبل الميلاد، أى بنحو ثمانية قرون قبل ظهور الدعوة الإسلامية.. أما المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، فقد كانت شبه مستقرة حيث حضارات سبأ وحمير ومعين وقتبان... وكانت الأبجديّة الآرامية هى الشائعة قبل الميلاد بقرون وبعده بقرون، وكانت هى الأبجدية الشائعة فى الهلال الخصيب، سواءٌ بين من يتكلمون الآرامية أو السريانية أو العربية.. حيث كانت المنطقة كلها مزدحمة بالهجرات والسُّلالات والنُّبوّات التى كانت تبحث لشعوبها عن مناطق خصبة، تحميهم من المجاعات.

وانتساب عرب الشمال إلى اسماعيل يجعلهم أبناء عمومة لبنى إسرائيل

(يعقوب) أو بتعبير أدق أنصاف إخوة، فالجد الأعلى للطرفين هو ابراهيم أبو اسحق وجد يعقوب (إسرائيل) من جهة، وأبو اسماعيل وجد عدنان، من جهة أخرى.

ودراسات علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع الديني الغربيّة، ترى أن أسماء أبطال وأنبياء السامية، ليست إلا إشارة لما يُعرَف بالأبونيم[1] القومي لموجة هجرات عاتية (هند أوربية) تلاحقت ثم استقرّت في الهلال الخصيب ومنطقة شبه الجزيرة العربية.

☆☆☆☆☆

(١) إبونيم Eponym اسم رمزي يُطلق في علم الاجتماع الديني على النبوات والبطولات التي قادت شعوبها في الهجرات، والتي أوهمت شعوبها بالوحي والنبوة والاتصال بالله.

(ب)

العهد القديم يجعل ابراهيم ينتمى إلى بدايات الألف الثانية ق.م، أى نحو ١٨٠٠ ق.م وقد نشأ ابراهيم (أول إبونيم للعبرانيين) فى أور أو فى حَرّان فى بيئة كانت تعبد الإله سِنْ (Sin) إله القمر، ورفَضَ إبراهيمُ قبائلية قومه، فدعاهم إلى وحدة الوطن والشعب والمعبود، وهاجر إبراهيم غربا مع قومه إلى كنعان، وكان اسم إله إبراهيم شَدَّاىْ Shaddai أى «إله الجبل» بالآرامية، واستمرت فكرة توحيد الشعب والمعبود فى بنى إبراهيم عبر اسحق ويعقوب مؤسسى إسرائيل وأخلافهما حتى موسى، ويرى كثيرون من دارسى تاريخ العبرانيين أن موسى ينتمى إلى القرن الثالث عشر ق.م، كما يرون أن تاريخ طرد المصريين للعبرانيين وخروجهم من مصر، كان فى عهد منفتاح، وقد سمى موسى إله العبرانيين «يِهْوَه» Yhwa ولكن يشير سفر التكوين (٤ / ٢٦) إلى أن عبادة يِهْوَهْ أقدم من موسى.. ويرى دارسون كثيرون للثقافة الدينية اليهودية، أن التوحيد فى بنى إسرائيل من إضافة أنبياء القرن الثامن والسابع قبل الميلاد، خصوصا لدى النبىّ دانيال، وكان من المعروف ـ منذ القديم ـ أن الساميين والعبرانيين كانوا يعبدون معبودا واحداً باسم «إلْ» El، وكان هو الإله الخالق، وفى سفر التكوين (١٤ / ١٩) أن الملك سالم Jeru Salem فى كنْعَان كان كاهن الإلَه إلْ El. Elyon وهى آرامية تقترب من العربية ألْعليّون أو الأعلى The most high.

ويرى بعض دارسى الهجرات، احتمال أن يكون بِرَاهْما Brahma هو النبى أو «الإبونيم» القومى لموجة هجرة هندية إيرانية استقرّت فى أور عَبْر

لوريستان فى إيران، ثم هاجرَتْ إلى حَرّان فى عهد الكاسيين (١٨٠٠ ق.م)... ويرى بعضهم احتمال وجود صلة بين براهْمًا وإبراهيم.

أما مانيتون السمنودى فيقول: «كان موسى كاهنا مصريا فى معبد رَعْ بهليوبوليس، وكان اسمه «أوزير سيف»، ودعا دعوة دينية جديدة، رفضها كهنة رع، فهاجر موسى إلى «أفاريس» عاصمة الغزاة الهكسوس وأقام بينهم وأعطاهم شرائعه وقوانينه، ثم قادهم فى خروجهم من مصر، وهم الذين سمّوه فى أفاريس «موسى» التى تعنى بالمصرية «وليد أو ابن أو ابن النهر»؛ وبدهىّ أن المدوّنات التاريخية المصرية، تذكر تاريخا حقيقيا لمصر والعبرانيين. ولا توجد أية إشارة لخيالات العبرانيين عن عبور البحر وغرق الجيش المصرى.

☆☆☆☆☆

obeikan.com

(جـ)

هناك قصتان للطوفان، قصة العهد القديم، وقصة طوفان «الأوڤستا» الزرادشتية، مع العلم بأن إله العواصف اليونانى كان اسمه «تيفون» كذلك فإن سكان جنوب شرقى آسيا القدامى كانوا يطلقون اسم «تيفون» على أى مدّ بحرى مُدمّر.. الأوڤستا تقسّم البشر إلى ساميين وطورانيين وآريين، أما العهد القديم فيقسمهم إلى ساميين وحاميين وآريين.

ليس ثمة مبرر للخلط بين الأجناس واللغات والثقافات، إذ إن التّمازج يحدث بسبب التحام الهجرات، فيؤدى ذلك إلى التأثير فى اللغات وصفات الأفراد وثقافاتهم

علينا أن ندرك أن اللغة العربية ـ كغيرها من اللغات السامية ـ ليست فى صلبها إلا تطوّرا طبيعيا من نفس الجذور التى خرجت منها السنسكريتية وإيرانية الزند واليونانية واللاتينية والمجموعة اليتوتونية.

وليس من الضرورى أن تكون الأصول واحدة فى سلالة ما، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية العنصرية ونقاء السُّلالات، فالمصريون وعامة شعوب شمال إفريقيا ينتمون سلاليا إلى عنصر غير عربى، ومع ذلك قبلوا اللغة العربية، حين قبلوا ثقافة الإسلام، بل إن أقباط مصر الذين لم يقبلوا ثقافة الإسلام، قبلوا اللغة العربية لأنها أصبحت لغة مصر القومية، وبالمثل فإن المصريين المسلمين، رغم قبولهم للثقافة الإسلامية، امتصوا الكثير من عناصر اللغة القبطية الديموطيقية ومزجوها بالعربية، وهكذا ظهرت العاميّة المصرية التى مزجت بين العربية والتراث المصرى القبطى والفرعونى.

☆☆☆☆☆

(د)

حين ننظر إلى خريطة بطليموس، فى القرن الثانى الميلادى لشبه جزيرة العرب، لا يسعنا إلا أن نتوقف كثيرا أمام بعض الأعلام التى تقطع بوجود جالية مصرية.. فمنطقة «الطائف» تظهر فى بطليموس باسم طيبة»، ومكة تظهر باسم مَلْكاىْ **Malichae** ، ووجود هذه الأسماء قريبا من الميلاد، يوحى بتأثيرات مصرية سابقة للتاريخ الإسلامى. والتوراة تشير إلى أن «أماليك» كانوا يسكنون فى شبه الجزيرة العربية، وهذا يطابق الرواية العربية بأن مكة كانت ـ قبل مجئ العرب ـ يسكنها قوم اسمهم العماليق، ومنهم بنوجرهم، وهذا يفسّر اسم مكّة، كما ورد عند بطليموس، وكما ورد فى العهد القديم، وهذا يعنى أن الهكسوس (الهاجازازى = الحجاز) عندما طردهم المصريون استوطنوا الحجاز، واتخذوا من مكة عاصمة لهم.. ولا يستبعد المؤرخون أن يكون المصريون، بعد أن طردوهم عبر برزخ السويس، طاردوهم بعد ذلك بتجريد حملات عليهم عبر البحر الأحمر جهة الأقصر والقصير أيام مجد طيبة فى الدولة الحديثة فى زمن التحامسة والرّعامسة، واحتلوا ساحل الحجاز المواجه لمصر وأطلقوا عليه اسم طيبة (كما ورد فى بطليموس الجغرافى).. وبعد انحلال مصر، انتهى النفوذ المصرى وبقى اسم طيبة «الطائف» الذى ورثه العرب بعد احتلالهم للحجاز فى زمن تالٍ للقرن التاسع قبل الميلاد.

فالعرب ـ إذن ـ موجة متأخرة جدا من الموجات التى نزلت إلى شبه الجزيرة من القوقاز والمنطقة المحيطة ببحر قزوين والبحر الأسود، نحو ألف عام

obeikan.com

قبل الميلاد، أو قبل ذلك. ولعلها لم تستقرّ في مكان ما في بلاد ما بين النهرين أو في الشام، لأنها وَجَدَتْ في هذه وتلك أقواماً منظمين أقوياء، فنفذت إلى الفراغ الكبير في شبه الجزيرة من طريق بادية الشام، حاملةً معها لُغَتَها القوقازية المتفرعة عن المجموعة الإندو أوربية.. وفضّلت الحياة والحرية في بادية شبه الجزيرة، على قيود وديان الأنهار مكتفية بروابط العصبية القبلية عن الارتباط بالوطن «سجن المتحضرين» كما يقول ابن خلدون.

☆☆☆☆☆

(هـ)

بسبب النّعرة العربية العنصرية، أصرّ اتجاه عربى كبير على الإيمان بأن اللغة العربية قديمة، قدم الخليقة (هكذا!!) وأنها أقدم اللغات طرّا، وهى بغير وشائج تربطها بلغات أخرى، ومن هنا توقف علم الاشتقاق فى اللغة العربية عند حدود علم «الصرف» أو المورفولوجيا ليفسّر ظهور المثنّى والجمع من المفرد، أو ظهور الأسماء من الأفعال.. ولم يبحث فى جذور الألفاظ وتطورها وصلتها باللغات الأخرى..

وذات مرّة، ردّ أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس، فى مدرج «على مبارك» فى دار العلوم، على طالب ادعى قدم وقداسة اللغة العربية، فقال للطالب: «... إن اللغة الأمهريّة والحبشيّة تحتفظ بلفظ «قاشْوَر» للدلالة على الأسد العنيف أو النمر... وهذه الكلمة نُقِلَت إلى اللاتينية فى بدايات الصراع المسيحى فى الحبشة وجنوب شبه الجزيرة العربية، ونُقلَتْ هذه الكلمة إلى اللغة العربية والقرآن ﴿**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ..**﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١].

ثم أردف الدكتور أنيس قائلاً للطالب: «... إنّك لو راجعْتَ تفسير معنى قسورة فى كتب التفسير، فسوف تحس بالعمد فى الابتعاد عن المعنى الحقيقى للفظ قسورة (الأسد) والقول بمعانٍ أخرى بعيدة عن الحقيقة والصحّة اللغوية» وجعل المعنى الحقيقى «الأسد» هو المعنى الثالث....».

يقول الإمام الشافعى فى «الرسالة» بتحقيق محمود شاكر: «القرآن يدلّ على أنّ ليس من كتاب الله شئ إلا بلسان العرب» والشافعى لا يستند فى هذا الرأى ـ كما يستند القاضى عبد الجبار إلى ما دخل العربية من الألفاظ

الأعجمية فتعرّب، وهى نظرية راقية فى تأثر اللغات بعضها ببعض، فالقاضى عبد الجبار ذو ميول اعتزالية، وإنما يستند الشافعى إلى شمول اللغة العربية بحيث تستوعب كل الألفاظ، وهذا الرأى ينقل القداسة من القرآن إلى اللغة العربية، وهذا ما جعل الشافعى يقول: «حيثما وجدنا لفظين متشابهين فى اللغة العربية وفى لغة أخرى، فإن الأخرى هى التى أخذت من العربية لا العكس، لأن الناقص يأخذ من الكامل وليس العكس»!!؟؟

وهذا التعصب للغة العربية وكمالها، انتقل عبر الأجيال حتى وجد تعبيرا عنه فى قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم عن اللغة العربية، فيتحدث باسم اللغة العربية قائلا:

أنا البحرُ فى أعماقه الدرّ كامنٌ فهل ساءلوا الغوّاص عن صدفاتى
وسِعْتُ كتاب الله لفظاً وغايةً وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعظاتِ
فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ وتَنْسيقِ أسماءٍ لمُخْتَرَعاتِ

وعارض المعتزلة (لميلهم للعقل) فكرة قدم اللغة العربية، وكثيرون منهم كانت لهم لغات أمومة سابقة على العربية، فآمنوا بأن اللغات ـ أيا كانت ـ وسيلة لتوصيل الفكر للآخرين.. ومن عجب أن يقول محمود شاكر ابن القرن العشرين: «والعرب أمة من أقدم الأمم، ولغتها من أقدم اللغات، كانت قبل إبراهيم واسماعيل، وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية والفارسية» وهو لا يدرى أن لغة إبراهيم كانت الآرامية المنحدرة من المجموعة الإندو أوربية.

☆☆☆☆☆

(و)

ثم بدأ علماء أوربا الاهتمام باللغات الشرقية القديمة، فاكُتشفَتْ لوحات مسمارّية بلغة البارسى **parsee** ، وبلغة الزِّنْد **Zend** ، وهى الإيرانية القديمة من خلال نصوص الأوڤستا، وأكتُشِفَتْ اللغات الهندية السنسكريتيّة **Sanskrit** والبراكريتية **Prakrit** من خلال نصوص الڤيدا **Vedas** ، ثم اكتُشِفَتْ المصرية من خلال نصوص حجر رشيد، ومن برديات مصرية كثيرة، فضلا عن متون الأهرام ومتون التوابيت.. وظهرتْ آليات حديثة لمعرفة تواريخ الحفريات وتواريخ المتون، مثل استخدام كربون ١٤ وامتصاص الفلورين.

واكتْشفَتْ بقية لغات الشرق الأوسط القديم «مَعْبَر الهجرات» كالسومرية والآكاديّة والحيثية والكنعانية، ولغات سبأ وحِمْير ومعين وقتبان.. وقُسِّمتْ اللغات إلى سامية وحامية وهند أوربية (أو ما كان يطلق عليه ماكس مولر ـ المجموعة الآريّة).. ثم كان تقسيم آخر مستند إلى أبطال الطوفان (تيفون) الذين جاءوا فى أوڤستا زرادشت، وهم: إيريك وسام (أوسَلَم) وطور.. وقالت الأوڤستا إنّ إيريك أبو الآريين أو الإيرانيين، وسام أبو الساميين أو الشاميين، وطور أبو الطورانيين المحيطين بإيران (الترك – التتر – المغول – الأكراد).. وصار دارسو اللغات من العرب ـ الآن يدركون تداخل اللغات (كما تداخلت الأجناس).. ثُمْ اللاتينية ظرف زمان **(tum)**، وهى نفسها ثمّ وثمّة العربية.. «صوت» قريبة من **sound** الانجليزية و **Sonitos** اللاتيتية، عمود وعماد العربية نراها فى إمْدو وإندو الآكادية، وهى عَمَد فى

الفينيقية، وعَمَد فى العبرية، وهى عموذا فى الآرامية، وهى عَمَد فى الأمهريّة الحبشية.. «ذيل» العربية قريبة من تيل الإنجليزية وديل فى العامية المصرية.. خَتّ وختم فى المصرية القديمة، هما أصل ختم العربية والخاتم بل لا تزال فى القبطية «شو تم» بنفس المعنى والنطق قريب، وقريب من هذا «خَتْمَتْ» المصرية القديمة بمعنى العهد والميثاق (كأنّه خُتِم عليه).. «غَنّى» العربية موجودة فى الأصل اللاتينى كانو cano، وموجود نفس النطق والمعنى فى العبرية «غَنَا».. «حَبْل» العربية وكَبْل الانجليزية اللاتينية، وفى العربية كَبّله ربطه أو قيده.. أنا ونحن العربية نراها فى «إحنا» العامية، ونينو وأنينو فى الآكادية، ونِحْنا Nehna فى الأمهرية الحبشية، و«نو» Nos اللاتينية.. «الكا» قرين الميّت فى الميثولوجيا المصرية هى نفسها (أُخْتَ العَربية والأخ) والعامّة يقولون: إذا لم تُصرَف الروحُ أو الأخت، فإنها تتبدّى لبعض الناس (أخت الميت طَلَعَتْ من تحت الأرض) وهذا تأثير فرعونى. «تمبا» المصرية القديمة بمعنى الذيل، وربما كانت تُنطق زمبا، وهى موجودة فى الأمهرّية الحبشية «زاناب» كالعَربية و«ذنبا» العبرانية، و«زيباتو» الآكادية، و«دُنْبا» الآرامية السريانية، «شَبَتْ» المصرية تحوّلَتْ لـ(شفة) هى نفسها «شبت» العبرانية، وهى «شفة» العربية، والمصرية القديمة أسْبَق من العربية بعدة آلاف من السنين، «خابار» المصرية بمعنى صار أو كان، ولا يزال المصريون المعاصرون يرددونها فى قولهم «خابار كان» أى أن «كان» العربية[1] تعنى «خابار» المصرية. المصريون لهم سبق فى «الميزان» حيث يُرى الميزان المعلّق فى متون التوابيت، بل يُرَى فى متون مصرية، وقد وُضِعت ريشة «أوزير» فى

(١) لويس عوض: مقدمة فى فقه اللغة العربية.

كفة، وقلب الميت فى الكفة الأخرى، ووحدة الوزن كانت شاقِلاه أو دِبن، والشاقلاه أساس « ثُقْل » العربية، والشاقل وحدة النقد فى إسرائيل إلى اليوم، و« الشاقول » عصا فى طرفها حديدة تقاس بها الأرض الزراعية فى مصر القديمة، وهى « مصرية » أقرّها المجمع اللغوى. ويذكر العبرانيّون أن المصريين القدماء هم الذين سَمّوا « **Seros** سيروس » أى « الشعرى اليمانية » والكلمة فى اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة.. إذنْ كما اختلطَتْ وتلاقحت الأجناس، تمازجت اللغات واختلط بعضها ببعض، فلا حق لأحد أن يدعى قِدم لغته أو شرفها، أو أنها لغة الله، ولغة أهل الجنة، وسبق أن ذكرنا أن « سورتا **Sorta** » المصرية القديمة، تعنى « المتن المستخدم فى القداس »، وهى أساس « سورة من سور القرآن » وأساس « سِفْر » العربية، و« سيفر » العبرانية بمعنى كتاب، وموجودة فى الآرامية والسريانية والفينيقية « سِوارْ. صُوَارا ».. كذلك فإن « ستْ » المصرية (رمز الشّر) نُوِّنَتْ فصارت سِتِنْ ثم ساتان والشيطان. كذلك فإن « أوزير » أو « عوزير » هو المسئول عن الموتى، فصار فى الساميات « عوزير إيل » أو « عزرائيل ». كذلك فإن « بارا » المصرية بمعنى بيت، وهى التى نسمعها فى « بارا أون » البيت العالى والتى صارت علماً على « فرعون » حاكم مصر، ثم أضيف إلى « بارا » لفظ « دوس » بمعنى نعمة، فكانت البارا دوس أو الفردوس ... وواضح تغلغل التراث المصرى القديم فى التراث السامى(١).

☆☆☆☆☆

(١) عن الأب أبيب النقّادى شخصيًا.